

محمد العيد آل خليفة

(وتعدد مظاهر المقاومة في شعره قبل ثورة التحرير 54)

أ.د. وذنانني بوداود

جامعة عمار ثليجي - الأغواط - الجزائر

تمهيد :

عندما شرعت في البحث عن النص الشعري المقاوم في الأدب الجزائري الحديث، لفت انتباهي ما قاله الشيخ البشير الإبراهيمي في الشاعر محمد العيد آل خليفة. حين قال (ومن يعرف محمد العيد. ويعرف إيمانه وتقواه، وتدينه وتخلقه بالفضائل الإسلامية، يعرف أن روح الصدق المتفشية في شعره. إنما هي من آثار صدق الإيمان، وصحة التخلق، ويعلم أنه من هذه الناحية بدع في الشعراء .

رافق شعره النهضة الجزائرية في جميع مراحلها، وله في كل ناحية من نواحيها، وفي كل طور من أطوارها، وفي كل أثر من آثارها - القصائد الغر، والتقاطيع الخالدة، فشعره - لو جمع - سجل صادق لهذه النهضة وعرض رائع لأطوارها)¹ فهذه الشهادة من خبير بالرجال، وفنون الشعر واللغة، حفزني على تتبع المقاومة في شعره، إنصافا لهذا الشاعر الكبير، وإنزاله المنزلة التي يستحقها بين شعراء عصره. فكان أن تتبع مظاهر المقاومة في شعره، قبل ثورة التحرير 54. في هذا البحث المواضيع .

في مفهوم المقاومة :

يتعدد مفهوم المقاومة، نظرا لما تحمله كلمة مقاومة من معاني كالنضال والمواجهة والرفض وغيرها من المعاني. فالمقاومة تعني المجابهة بكل الوسائل لحماية النفس أو استرجاع حق ضائع، أو صيانة عرض أو وطن أو حق من الحقوق. وهي حق إنساني مشروع. وقد حث الدين الإسلامي

على مقاومة الظلم والطغيان والتجبر والتسلط. فقد ورد في الذكر الحكيم قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وءآخريين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)² فالمقاومة هي حق يمارسه شعب من الشعوب لرفع الظلم عن نفسه، وتغيير للوضع السائد، من أجل وضع جديد، يسمح له بممارسة حريته كاملة غير منقوصة. فهي ثورة تهدف إلى تحرير الشعب من كل شكل من أشكال الهيمنة والاستعباد والسيطرة ومصادرة الحريات. ومن هنا كانت مقاومة الشعب الجزائري للاستعمار الفرنسي، مقاومة مشروعة، بواسطتها تمكن تحرير نفسه من كل أشكال الهيمنة والاستعباد والقهر.

وإذا كانت المقاومة تعني التغيير والتحرر، فإن الأدب المقاوم هو الأدب الذي يعبر عن ذلك، ويمجد الفعل الثوري ويشيد به، كما يشيد بكل ما تنجزه تلك المقاومة من تغيير في صالح واقع الإنسان. فالأدب المقاوم هو صوت يصدر عن ذات تنشد الحرية والانعقاد. ومن المعلوم أن سلاح الكلمة قد يكون في بعض الأحيان أشد وطأ على العدو من أي سلاح آخر. ومن هنا فلكل مقاومة أدباؤها الذين يعبرون عنها ويشيدون بطولات رجالاتها وصمودهم وتحديهم لعدوهم. وعليه فليس هناك مقاومة لعدو بدون أدباء يشيدون بها وينشرون أفكارها. فالشعر يؤدي وظيفة خطيرة في واقع المجتمعات والشعوب. فهو الصوت السحري الذي يحرك النفوس ويثير غضبها على أعدائها. لأن الشعر (يثير فينا دائما أعماق ما فينا، لأنه يخاطب فينا مباشرة حقيقة مأساتنا جميعا وينجح في أن يعرينا من الأعماق، من زيفنا وقلقلنا وعارنا، وأن يعيد ارتباطنا العفوي الصادق بأرضنا وخصائصنا وسماتنا الأولى في براءة وطهر)³ فالشاعر وعن طريق الكلمة الحماسية يستطيع أن يحرك النفوس ويدفعها للقيام بالثورة. والمعروف حقيقة أن المقاومة تفتح أفق الأديب على الواقع الذي يعيشه وبذلك توفر له مجموعة من الموضوعات الجديدة التي تحفز على القول والتعبير، وتحرك ما يجول في نفسه من مشاعر وإحساسات وطنية، فتتفجر قريحته الشعرية، قصائد تحريضية مقاومة.

الشعر والمقاومة :

إذا كان الكثير من المهتمين بالأدب يدركون بأن الشعرية تعتبر أداة فعالة من أدوات المقاومة. لأن المنص الشعري المقاوم له خصوصية خاصة، تميزه بفيض من الإحساسات

والمشاعر الصادقة التي تعبر عن روح الثورة ومواجهة العدو وكشف دسائسه ومخططاته الخطيرة. ومن هنا كان (الشعر المقاوم هو وجود أو حياة، ومعايشة يومية للواقع، أو علاقة مع انبثاق الكيانات وانطفائها. وتأخذ هذه العلاقة شكل زمني، يضم الاحتجاج والملا انصياع، والإدانة، والاستفسار، والاستفزاز، وأهم ما تتسم به أنها مفارقة للإشراف والتعالي على التاريخ، وستكتب الاستمرارية للشعر المقاوم ما دام يمارس الضم واحتواء الواقع في الوجدان)⁴ والمطلع على الأدب الجزائري يلاحظ بأن الأدباء الجزائريون قد ارتبطوا بالمقاومة من البداية، منذ أن وطئت أقدام المستعمر أرض الوطن، لأن (الحركة الأدبية ذات صلة وثيقة بالوضع الوطني والاجتماعي. فقد كان الأديب دائما ضمير الأمة. وصدى همومها وآمالها. ولسانها المعبر عن معاناتها وطموحها. يرصد جوانب الخير والشر فيها. فيبارك تلك عموما، ويعرض بهذه ويدينها غالبا. مبشرا بمثل العمل والمحبة والوفاء، داعيا إلى سعادة الإنسان وصون كرامته، وكرامة وطنه، معلنا عداءه لكل أشكال الظلم والقهر وكل أساليب المصادرة التي تتعرض لها حرية الأفراد والأوطان)⁵ فالشاعر الجزائري كان أيام المحنة يتحسس بقلبه هموم ومشاكل الأمة، فقام مناضحا عليها بشعره، الذي خلد فيه مآثرها. ف(الشعر الجزائري قد قام برسائله أحسن قيام. دافع عن الكيان الجزائري في عقر بيته، واهتم بالأحداث المؤلمة التي ألمت بالعرب ونادى أيضا بموازنة المظلومين حيثما كانوا)⁶ فالأديب الجزائري كان دائما في مقدمة الصفوف مدافعا عن حرمة الوطن، يستنهض أفراد المجتمع لإحداث قوة فاعلة تواجه العدو.

وبفضل مواقفه من الاستعمار وكشفه لمخططاته الرامية إلى استعباد الشعب الجزائري ومصادرة حريته. مهد الطريق للمقاومات المتلاحقة (فقد عبأ الشعراء كل طاقتهم من أجل الوطن الذي حاولت فرنسا سلب شخصيته، ومسح هويته، فانبرى الشعراء كغيرهم للدفاع عن الوطن وحراسة قيمه ومثله التي ورثها عن آباءه وأجداده، ووقفوا كالأطواد الشائخة في وجه تيار التفرنس والاندماج يصارعون المد الاستعماري بجميع وجوهه الظاهرة والمقنعة)⁷ ومن هنا لعب الشعر دورا كبيرا في إثارة الثورات، فهو المحرك للنفوس، الأمر الذي دفع الفرد الجزائري إلى المواجهة والتصدي للعدو، فليس هناك مقاومة أو ثورة بدون شعراء .

وبذلك أحيا الشاعر بشعره في نفوس الجزائريين البطولة وحب الوطن وروح التضحية من أجله. ومع ظهور الفكر الإصلاحي الذي لعب دورا كبيرا في تهيئة الشخصية الجزائرية من خلال ترسيخه للقيم الوطنية الأصيلة، أصبح الشخص الجزائري مهيا للتعبئة السياسية والنضال والمقاومة وتحمل مخاطر الثورة، والدفاع عنها. فقد (كان الشعر دائما بالمرصاد لكل الوعود الكاذبة والمزاعم التي يطلقها العدو ضد الشعب وكذلك أعوان الاستعمار ومن يسرون في ركابه)⁸ فالنص الشعري المقاوم الذي واكب انتفاضات الشعب الجزائري هو نص حي مكتنز بالحقائق التاريخية المتجددة بتجدد الزمان والأحداث. وبعبارة أوضح نستطيع أن نقول أن النص الشعري المقاوم، هو نص فاعل نص متمرد على الواقع المأساوي الذي يعيش فيه الفرد الجزائري، لذلك فهو نص منفتح على تعدد القراءات والتفسيرات، حسب متغيرات الزمن، والرؤية الفكرية لكل متلقي له .

المقاومة في شعر محمد العيد :

إن الذي يطلع على شعر محمد العيد آل خليفة، يجد أن المقاومة في شعره قد شملت موضوعات مختلفة، ولم تكن مركزة في قضية واحدة، لأن اهتماماته كانت موزعة على كل القضايا التي تتعلق بالوطن وبالعقيدة وبالهوية. لذلك يعتبر من أبرز شعراء المقاومة البارزين الذين غلبت على شعرهم مظاهر المقاومة. فهو في كل قصيدة يبدعها يحاول أن يبقاظ الهمم من أجل الشعور بالحياة الكريمة، وتجاوز الأخطار التي تحيط بالأمة. فقد عمل على تهيئة النفوس لتغيير الواقع والتخلص من مآسيه وهمومه. (وكان إلى جانب ما عرف به من شدة غيrote على الأصالة القومية وحرصه على مقومات شخصية الأمة، واسع الأفق متحرر الفكر، متطور النظر، بعيدا عن كل تعصب، متفتحا على التجارب الإنسانية، داعيا إلى الإفادة منها، ومن كل منهج يحتم قيم التراث القومي، ولا يمس مقومات الشخصية الإسلامية العربية، ويهدف إلى بناء الحاضر والمستقبل على أسس من أمجاد الماضي التليد)⁹ وقد تناول قضايا الأمة بإحساس صادق وإيمان قوي بقضيتها. فكان لشعره الأثر القوي في تحريك النفوس وتبصير الأمة بخططات العدو، والاستعداد لمقاومته. يقول :

إن الزمان يسجل الأعمال
تجلو الأمور وتكشف الأحوال
للنشء رمـزاً عالياً ومثالا
في فجر نهضتكم ففاق بلالا¹⁰
فالعمر ساعات تمر عجالا

حثوا العزائم وأصدقوا الأمالا
وشهادة التاريخ أوثق حجة
فتدارسوا التاريخ وألتمسوا به
إن الزمان بكم أهـاب مـؤذنا
يا قوم هبوا لا غتنام حياتكم

فبمثل هذه المواقف الشجاعة قاوم محمد العيد هجمات العدو على الدين الإسلامي، وعلى اللغة العربية. كما قاوم هجماته على تاريخ وشخصية الأمة وهويتها. لأنه من الشعراء الذين يدركون حق الإدراك الرسالة النبيلة للشعر، وأن تلك الرسالة لا يمكن أن تؤدي دورها إلا إذا تمت تأديتها على أتم وجه وبمسؤولية كاملة. فتكون نتائجها ايجابية على أفراد المجتمع. ومن ثمة كانت قصائده كانت قصائد مقاومة.

يقول في إحدى قصائده :

بإنذارهم والحر بالحق يصدع
عليهم وحبل الشعر عاص وطيع
ويسلس لي طورا فادعوه فيسمع¹¹

وقفت به أستنهض القوم صادعا
أجاذب حبل الشعر حتى يعينني
يعاندني طورا فيرفض دعـوتـي

فالشاعر هنا يلفت الانتباه إلى دور الشعر في تحريك دواخل أفراد المجتمع نحو الهدف المنشود. فكان أن قام بإثارة النفوس وتحريضها على الثورة والتمرد على واقعها المظلم، وهدفه الأول من ذلك بعث هوية الشخصية الجزائرية متمثلة في الإسلام والعروبة. كما أدرك بأن مقاومة العدو لا تأتي ثمارها، إلا إذا كان الشاعر منصهرا في واقع مجتمعه، ومدركا لخططات عدوه ومسلحا بوعي سياسي وفني ثوري. كما كان يدرك جيدا دور الشعر في توعية الجماهير. فتمد رافق بشعره مرحلة طويلة من مقاومة الشعب الجزائري للمستعمر الفرنسي وقد عبر عن ذلك (بلغة الود الصادق والرغبة الجادة في التبليغ، لا لغة الزخارف والأصباغ التزييفية واللهو اللفظي والشعوذة الفكرية والأيدولوجية)¹² وقد تركزت المقاومة في شعر محمد العيد في المواقف التالية :

1 - نصرة الدين الإسلامي : عمل الاستعمار الفرنسي منذ أن وطئت أقدام عساكره على محاربة الدين الإسلامي، واستعمل لذلك كل ما يملك من قوة. فكان الشعب الجزائري بالمرصاد لكل مخططاته. وفي خضم هذا الصراع أدرك الشاعر بحسه المرهف بأن الشعر هو سلاح من أسلحة المقاومة، ولا بد من استغلاله لتحريض الشعب على التمرد ومقاومة العدو. فكان محمد العيد في مقدمة الشعراء الذين تصدوا للمخطط الرهيب للعدو مدافعا عن عقيدة شعبه. وحاثا لأبناء وطنه على التمسك بالدين الإسلامي .

فبات قريرا شملنا المتلاحم
إليه وأنف الكفر خزيان راغم
وفضل لنا من دائم الملك دائم
وليس لعقد شده الله فاصم
مباركة كالخلد لولا المـزاحم
فلم يمتنع منهم عن القطف طامع
تهدها من حولنا وتهـاجم
بها فهل الأحفاد أسد ضـراغم؟
إلى الحق لا يأخذكم فيه لائم¹³

تلاءم في الدين الحنيفي شملنا
أبى الله إلا أن يضم قلوبنا
عطاء لنا من واسع الملك واسع
لقد شد بالإيمان عقد قلوبنا
وبوأننا في العالمين مـبـاءة
رياض دنـت للطامعين قـطوفها
هلم نذ عنها جـوائـح جمـة
لقد كانت الأجداد أسدا ضـراغما
إلى الحق ولوا أيها القوم وجهكم

فالشاعر لم يدخر جهدا في تنبيه أبناء وطنه إلى ما يحاك ضد عقيدتهم الإسلامية. و(يظهر أنه يفهم اهتمامات الدين الإسلامي كما هي على حقيقتها، فهما شموليا واسعا، يدخل في نطاقها الفرد وحاجاته، والمجتمع وقضاياها، والوطن وهمومه، والأمة وتطلعاتها)¹⁴ ولذلك فهو يستنهض طلاب العلم للدفاع عن العقيدة والتمسك بها .

بالذكر أو متمسك بعصامه؟
وتعرفوا بحلاله وحـرامه
وأذية القرآن من أقوامه
بالشعب حـر حافظ لـزامه
منكم فموت الشعب في استسلامه¹⁵

يا معشر الطلاب هل من آخذ
فتشرفوا بالأخذ مـن آدابه
ولكل شيء في الحياة أذية
يا معشر الطلاب هل من ناهض
أو باعث في الشعب روح إبـاية

ويرد على المتطاولين على الإسلام .

علم الخلود يظلل الأقطارا
لق النبال فإن صيدك طارا

هيهات يخزي المسلمون ودينهم
قولوا لمن راش النبال لصيده

ما بالكم لم تقتفوا الآثارا ؟ وتحرروا من قيده الأفكار كونوا على المتكبرين كبارا كونوا الحصون الحاميات ذمارا¹⁶	أجدادكم خطوا لكم الخطط العلا ما بالكم لم تقلعوا عن وهمكم كونوا على المتعززين أعزة كونوا الجبال الراسيات مناعة
--	--

ويؤكد على استنهاض النفوس في نص آخر قائلا :

تبقى إلى كم أنت و سنان حالما ؟ تضيق بمعناها اللغى والتراجم وقاوم فإن الحر فيهما مقاوم كريما أواسيه الرجال الأكارم له فسيبني الله ما هو هادم وحسبك أن الله بالحق حاكم¹⁷	أراك أخي ما زلت و سنان حالما تبقى ففي دنياك أعظم نهضة وجاهد فإن الحر فيها مجاهد وقم فابن ذكرا عالي الصيت ماجدا ولا تأس إن صادفت في الناس هادما سيغنيك حكم الله عن حكم غيره
--	---

فالشاعر في صموده ومقاومته كان مدفوعا بوعيه بحقيقة المستعمر وزيف مخططاته من جهة، ومن جهة ثانية بوعيه بصلافة مجتمعه وتصديه لكل تلك المخططات. فهو يؤمن إيمانا راسخا بأن النصر في الأخير سيكون لأبناء وطنه مهما كانت قوة المستعمر وجبروته وتسلطه، لأنهم يدافعون عن قضية عادلة. فمحمد العيد يستمد تجاربه وصوره من واقعه المر المحكوم بالقهر والظلم الاستعماري .يقول:

ولا تك مرتاعا حليف النواح بخسف ديار أو بعصف رياح لبذل نوال أو لضمد جراح ولا ترض أن تبقى كسير جناح فإن حبال الغي غير صحاح أرى الفوز للمحجّام غير متاح يؤون في العقبى بكل نجاح¹⁸	فيا أيها الشعب احتمل كل محنة وكن شامخا كالطود إن جل حادث ولا تكن عن صوت الإغاة معرضا وطرف في سماء الأقوياء محلقا فخذ بحبال الرشد إن رمت عصمة وأقدم على الأخطار في الحق إنني وسر في ركاب المخلصين فإنهم
--	---

ومن هنا نجد أن الشاعر قد استشعر أن الكلمة هي الأداة الفعالة، التي تحرك النفوس وتستنهض الهمم، ولكنها لا تحقق ذلك إلا إذا صبت قالب شعري. ومن خلال هذا التصور جاء النص الشعري المقاوم لمحمد العيد، نصا يتحسس آلام الأمة محاولا جبر كسرهما من خلال شحن نفوس أبنائها بروح الثورة والمقاومة.

وهذا الموقف جاء نتيجة معاشة الشاعر لما يحدث في الواقع، باندماجه فيه. فهو يعيش حياة مجتمعه متأثراً بكل ما كان يواجهه الفرد الجزائري يومياً من معاناة ومصائب وهموم ومظالم ومصادرة للحرية، مؤازراً ومتفاعلاً معه. الأمر الذي مكّنه من التعبير عن ذلك الواقع بكل صدق.

أخشى على الشعب هلكا	بيديه واجتـ
من ألسن قاذفات	تروى القبيح فصاحا
وأنفس خائنات	تهوى الخنى والسفاحا
ومن قوانين جور	سلت عليها صفاحا
ومن شقاء ملوح	غدا عليه وراحا ¹⁹

من خلال هذا الموقف الواعي بكل أساليب الصراع، يحاول الشاعر استنهاض القوة الكامنة في شعبه لمواجهة مخططات العدو الهادفة إلى تحطيم مقوماته العقدية المتمثلة في العقيدة الإسلامية .

يا شعب قم على الهمو	م والشـؤوم ثائـرا
يا شعب جد الجـد فاند	هـض واكسب المفـاخرا ²⁰

فاندماج الشاعر في واقع مجتمعه بأحاسيسه وقلبه وعقله، يدل دلالة واضحة على وعيه العميق بما تعانيه الأمة من محن. وبمثل هذه المواقف تنهياً السبل لخلق الفرد المقاوم الذي يخافه العدو ويحسب له ألف حساب .

ومن هنا يظهر لنا الدور الذي كان يقوم به محمد العيد من مجابهة لمخططات العدو الفرنسي من جهة. ومن جهة أخرى بعث قوة المقاومة والحدي والإسرار في النفوس من أجل استرجاع الحقوق المهضومة ولو بالقوة. فقد كان يدرك ما للكلمة من قوة تأثير في النفوس، ولذلك أشهر سلاح شعره في وجه العدو الفرنسي .

فقم يا ابن البلاد اليوم وأنهض	بلا مهل فقد طال القعود
وقل يا ابن البلاد لكل لص	تجلى الصبح وانتبه الرقود
فخض يا ابن الجزائر في المنايا	تظلك البنود أو اللـحود ²¹

إن مجازر 8 ماي 45 الأليمة قد غيرت مجرى التاريخ كما غيرت في عقلية الفرد الجزائري. فكان لها الدور الكبير في تغيير رؤية الشاعر من شعر الدعوة والنضال السياسي إلى شعر التحريض على الثورة. لأنه أدرك بأن ساعة الانتقام من العدو الفرنسي قد حانت، وأن هذه الأحداث الدموية والمجازر الرهيبة قد كشفت عن الوجه الإرهابي الدموي للاستعمار الفرنسي. وفي نفس الوقت هيأت الفرصة لتوحيد الشعب الجزائري ضده .

فاندفع محرّضا محرّضا على الثورة. فقد (كانت تلك الأحداث على مداها وجزرها، واعتدالها وتطرفها أكبر هزة للفكرة الوطنية)²² يقول محمد العيد مستنهضا أبناء وطنه :

فطائع ماي كذبت كل مزعم ديار من السكان تخلق نكاية ومعتقلات في العـراء مبيدة فيالك من خطب تعذر وصفه ولا خير في عد المظالم وحدها	لهم ورميت ما روجوه بإفلاس وعسفا وأحياء تساق لأرماس عليها لصوص في ملابس حراس فلم يجر أقلام به فوق أطراس إذا لم نبين عن مرهفات وأتراس ²³
---	---

فبعد تلك المجازر الرهيبة أيقن الشاعر (أن الشعب دخل في هذه الفترة منعطفا جديدا في صراعه مع الأعداء بما بدأ يقربه من موعد تفجير ثورته .)²⁴ فيرشد الشاعر أبناء وطنه إلى الطريق الصحيح قائلا :

سئنا من الشكوى إلى غير راحم وما وعدهم إلا سراب بقيـعة فيا أيها المستعمرون تنزها ولا تطمعوا أن تستلـين قلوبنا ويا أيها الشعب المروع لا تضق وقل للذي آذاك لا وصل بيننا	وغير محق لا يدين بقسطاس وما عهدهم إلا مداد بقرطاس ولا تسما وجه الحياة بأرجاس فتلك قنـاة لا تليـن لجساس بدنياك ذرعا وأطرح خلق الياس وموعدنا العقبى فما أنا بالناسي ²⁵
---	--

فهذا الموقف الشجاع كان القصد منه تحريض الجماهير على مقاومة العدو وعدم الخضوع له مهما كان بطشه وتجبره . وأن طريق النصر قد أصبح معبدا بتلك الأرواح التي أزهرت ظلما وعدوانا.

ورغم الجراحات المؤلمة التي أصيب بها المجتمع الجزائري، إلا أنه قد خرج منها أكثر صلابة وأقدر على المقاومة والنضال من أجل تحقيق النصر في المستقبل القريب. فالنص الشعري

المقاوم جاء ردا على تلك الأعمال الإجرامية التي قام بها الاستعمار الفرنسي وما تعرض له الشعب الجزائري عبر قرن من الزمن من ويلات ومصائب ومحن لا تعد ولا تحصى. (و) كان الشعر بالمرصاد لكل الوعود الكاذبة والمزاعم التي يطلقها العدو ضد الشعب وكذلك لأعوان الاستعمار ومن يسировون في ركابه) ²⁶ فحمد العيد كان من بين الذين خبروا دسائس الاستعمار الفرنسي، لذا كانت مواقفه واضحة، انعكست في تصديه للعدو، ومواجهته لمخططات الهيبة، واستنهاضه لأبناء وطنه للقيام بالمقاومة .

الأسر طال بكم فطال عناؤكم	فكوا القيود وحطموا الأغلالا
والشعب ضج من المظالم فانشدوا	حرية تحميه واستقلا
لا أمن إلا في ظلال مرفرف	حر لنا عال ينير هلالا ²⁷

فالشاعر يكشف الأساليب ألا إنسانية للعدو من أجل إخضاع الناس وإذلالهم وسلب حريتهم. وهذا الموقف الصامد الصادق هو مظهر من مظاهر مقاومة الشاعر للعدو فقد كشف زيف مخططاته التي حاول من خلالها تظليل الجماهير وخداعها وإيهامها بأحلام لا تتحقق أبدا. فهو يعمل على تسليح أفراد مجتمعه بالكلمة الواعية القادرة على مواجهة العدو والصمود أمام مخططاته وجرائمه الوحشية. (فقد سئم الشعب حياة الذل وضاق بهذه الأغلال. وقد كثرت دسائس الاستعمار ومكره. فلم يبق إلا طريق النضال. فلا يحقق نصره وعزه بالهدوء والاتزان. فهذه الوسيلة تعتبر عند الاستعمار جبنا وضعفا.) ²⁸ فوقوف الشاعر إلى جانب شعبه كان نتيجة اصطدام الشاعر بالواقع المأساوي الذي كان يعيشه الفرد الجزائري تحت وطأة المستعمر الفرنسي، وما كان يعانيه من مصائب لا تعد. ومن هنا (أصبح لزاما على الشعب أن يعيد النظر في نفسه وأن يقطع الأمل في أي إصلاح لحاله يأتيه من فرنسا، وراح يتلمس بين جنبه نفسا عصامية، تبعثه من جديد في دنيا المتناقضات وتخلقه خلقا جديدا في حياة دخيلة كادت تعمي كل المقومات الأساسية للشعب وتطمس معالمها .

فاتجهت العناية إلى بعث الذاتية الصميمة، وإذكاء النخوة والاعتزاز بها، وان أصبحت في مهب العواصف) ²⁹

2 - بعث التاريخ وتقوية الشخصية الوطنية :

يعتبر محمد العيد من صنف الرجال الذين يدركون ما لبعث التاريخ من أهمية كبيرة في استنهاض همم الشعوب، وإعادة بناء مجدها. فاستلهم العبر من التاريخ هو الذي يحرك النفوس نحو المقاومة. فحينما يتحسس الشاعر واقع مجتمعه المر، يجد نفسه مجبرا على استنهاض الهمم من خلال العودة إلى التاريخ لبعثه من جديد ليكون مشعلا ينير درب الجماهير نحو الحرية والمستقبل. وقد طبق ذلك الشاعر ميدانيا، حيث ظهرت مظاهر المقاومة في شعره جليلة لا لبس فيها، مما أكد دوره الحقيقي في التبشير بثورة التحرير المجيدة التي خلصت الشعب الجزائري من العدو الفرنسي.

فيا شعب لا يحزنك أنك تبتلى	وأنت تقصى عن علاك وتقص
فتأبر على الحق الذي أنت طالب	فإنك في تضاييعه لست تعذر ³⁰

ويقول في قصيدة أخرى :

فردوا مجد ماضيكم	وحوطوه بأرصاد
وقفوا أنفسكم نأ	ر عداوات وأحقاد
يزيد الخصم إيقادا	لها من بعد إقاد ³¹

فالشاعر يحذر قومه من الخلافات التي تمكن العدو من بسط نفوذه على الجميع، فالخلاف مهلكة ومرض ليس له دواء ولذا كان تحذير الشاعر من ذلك .

نحن للصدر وإن خلفونا	فلنا في الأولين رعيل
لا تخف في جانب المجد موتا	فهو موت بالحياة كفيل
من يعيش حرا على الأرض يوما	قله في الناس عمر طويل
قد رفعنا راية المجد عليا	وبنا للمجد جد الرحيل ³²

3 - الدفاع عن اللغة العربية :

أدرك الشاعر ما للغة العربية من دور في بناء شخصية الفرد الجزائري، كما أدرك في نفس الوقت ما كان يخطط له المستعمر الفرنسي من بداية احتلاله للجزائر. فقد عمل على محاربة اللغة

العربية، والعمل على القضاء عليها، بكل الوسائل. ومن هنا كانت مقاومة الشاعر لثقافة المستعمر، الدخيلة على مقومات الشعب الجزائري. والعمل جاهدا لاسترجاع الشخصية الوطنية المفقودة .

بني وطني أعلوا المدارس تعلكم وصونوا بها الفصحى التي بكتابكم وهزوا مشاريع الجزائر إنها بني وطني لا خير في كل معرض بني وطني من كان للشعب فاديا	بتعليم جهال وإرشاد ضلال أشادت ببرهان وسأغت كسلسال تنوء بمرأى منكم تحت أثقال عن الشعب منكم واهن النفس بطل فكلوا له البشرى بأعظم مكيال ³³
--	--

فالشاعر هنا يستنهض قومه لبناء المدارس الحرة، من أجل تعليم الأجيال وصيانة اللغة العربية لغة القرآن، والتمسك بها لغة للشعب الجزائري المسلم. وبذلك يمكنهم مواجهة المدارس الفرنسية. فقد (واجه المواطن الجزائري محاولات التجهيل وطمس اللغة وتراثها، بتمسكه بالحضارة الإسلامية ومقوماتها الروحية وتشبثه باللغة العربية وإن كان يجهلها أو يتعثر لسانه في التعبير بها) ³⁴ كما أدرك الشاعر بحسه الوطني أن تعلم الفرد الجزائري للغة الفرنسي، قد يكرس عبوديته للفرنسيين، وبذلك يفقد الجزائري حريته وشخصية وإنسانيته. وقد لاحظ أحد الباحثين العرب أن (شعراء الجزائر كانوا لا يفصلون بين الدعوة الوطنية المتحمسة لكيان جزائري وبين الدعوة إلى تعميق صلة هذا الوطن بالعروبة والإسلام، كما كانوا لا يفصلون بين مفهوم العروبة ومفهوم الإسلام، فبالفطرة ثم بحكم ثقافتهم العربية الإسلامية التي تلقوها في جامع الزيتونة كانوا يدركون إدراكا عميقا أنهم ينتمون إلى الحضارة العربية الإسلامية) ³⁵ وقد أكد الشاعر في الكثير من قصائده على الانتماء القومي للشعب الجزائري للعروبة والإسلام.

و ما نحن إلا من سلالة يعرب عبد مناف جدنا وبنو كعب

فالشاعر يعتبر (العروبة هي السمة الأولى من سمات الكيان الجزائري، وأن استنفار المشاعر والتذكير والتلميح المستمر للعروبة إنما هو ضرب من الإحياء الدائب والتفكير المطرد في مقومات هذا الكيان.) ³⁶ يقول :

أفديك بالقول الذي ليس يفترى صل العرب العرباء واحم لسانهم	وأمحظك النصيح الذي ليس ينكر فإنك من أصلا بهم تتحدر ³⁷
---	---

بل أكثر من ذلك أن العروبة هي الدرع الذي يقوي الشعب الجزائري من الذوبان في الكيان الاستعماري .

(وبقدر ما كان الاستعمار عنيفا في الجزائر كانت المقاومة أشد صلابة وإصرارا، ولم تستسلم الجزائر يوما أو تخدع بأساليب فرنسا الثقافية في التغريب والعزل أو التجنيس والإدماج. وفشلت كل المحاولات)³⁸

4 - مقاومة فكرة الاندماج :

لقد روج الاستعمار وأذنبه كثيرا لفكرة الاندماج. وحاول بكل الطرق والوسائل أن يجعل من الجزائر جزءا من فرنسا. إلا أن الشعب الجزائري قاوم ذلك بكل ما يملك من جهد وكان الشاعر محمد العيد في طليعة المقاومين بشعره .

أبت السياسة في الجزا	نُر أن نعامل كالشعر
ولعل من نظم السيا	سة أن نغش وأن نغر
ولعل منها أن يدس	لنا ونجلب للحر
ولعل منها أن يبس	لنا لنجلب كالبقر
ولعل منها أن نما	طل كي يساورنا الضجر ³⁹

فالشاعر يكشف مناورات فرنسا التي تهدف من وراءها إلى مسح شخصية الفرد الجزائري بعد أن تجرده من هويته العربية الإسلامية. كما كان واعيا بالتغيير، الذي سيحدث في المستقبل، والذي يحمل في باطنه التخلص من العدو الفرنسي. ولذلك قرر أن يدفع بعجلة التغيير إلى الأمام من خلال الكلمة المقاومة المعبرة عن ما يجول في خاطر الفرد الجزائري. من أجل خلق وعي نضالي، يؤمن بحقيقة التغيير الجذري للوضع القائم. ولكن الوعي النضالي لا يتحقق إلا إذا فجره نص شعري راسخ الجذور في المقاومة .

ف) في هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الجزائر أخذ الشعر على عاتقه الدعوة إلى الوحدة الشعبية والوطنية النقية، وإلى التحرر من الماضي البغيض ونسيان الذات في سبيل المثل العليا.⁴⁰ والعمل بكل قوة وجهد، لمواجهة كل أنواع التفرقة والتشردم بين أبناء الوطن. وهنا نجد محمد

العيد يحذر الشعب الجزائري من ذلك تحذير العارف بخفايا العدو وأتباعه من الخونة. ويقول موضحاً:

قف حيث شعبك مهما كان موقفه تقول أضحي شتيت الرأي منقسماً فكن مع الشعب في قول وفي عمل ولا يرقك شفيف الذات مائعها أعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبا	أولا فإنك عضو منه منقسم وأنت عنه شتيت الرأي منقسم إن كنت بالرجل الشعبي تتسم كالماء فيه وجوه الناس ترتسم ⁴¹ ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم
--	--

ومن خلال هذا الموقف تتجلى مقاومة محمد العيد للوجود الاستعماري الفرنسي من خلال وعيه بالواقع المزري الذي يعيش فيه الشعب الجزائري، فيقوم بكشف مخططات العدو في نصه الشعري، من خلال رؤية صائبة، ومعرفة واعية بالقضايا ذات الأولوية بالنسبة للفرد الجزائري في تلك الفترة. فالذي يطلع على شعر محمد العيد سيلاحظ الدور الكبير الذي لعبه شعره في استنهاض الهمم وبعث روح الجهاد في نفوس الجزائريين.

5 - الدفاع عن الإنسانية :

يتجلى في شعر محمد العيد المقاوم، مظهر آخر من مظاهر المقاومة وهو الدفاع عن الإنسانية مهما كان جنسها أو معتقدها. الأمر الذي يكشف عن وعي الشاعر بخطورة الاستعمار على الشعوب .

قتل الإنسان لا يرضى إذا فهو في الهيجاء مثل الوحش لا شكت الأرض إلى خالقها أوقد الفتنة في أقطارها	أوتي القوة إلا أن يضئما راحم طفلاً ولا راع حريماً من كريم فوقها صار لئيماً ⁴² وأبى الهدنة فيها أن تقيماً
--	--

فمحمد العيد يتألم بآلام كل البشر لأنه ذاق مع شعبه ويلات الاستعمار واكتوى بنار القهر والتسلط والتجبر.

وخلاصة القول : إذا كان النص الشعري المقاوم هو نص ينبثق من رؤية واعية بحركة التاريخ التي يتحرك من خلالها المجتمع، لحظة إدراكه لواقعه المزري وفهمه للأسباب التي تقف وراء ذلك .

فإن نظرة الشاعر محمد العيد لم تكن مرتبطة بالواقع المعيش الذي يتخبط فيه الفرد الجزائري. بل تجاوزته إلى المستقبل، الذي يتحقق فيه النصر على العدو، وتعود الحرية للوطن الجريح. فقد عبر بصدق عن وجدان المجتمع الجزائري المقاوم للاستعمار. وأحى بشعره قيم الأمة الجزائرية، وعمق روح الوطنية في نفسية الفرد الجزائري. بعد أن عمل على تبصيرة الشعب الجزائري بتاريخ أجداده المجيد، وبذلك ربطها بوعيا التاريخي. فقد خاض المعركة بشعره، ولم يضعف أويتهاون وبقي صامدا حتى تحقق النصر. ومن هنا تتضح الرؤية الخاصة بالشاعر في المقاومة. فهي رؤية تقوم على نظرة فلسفية بعيدة العمق في الواقع الاجتماعي الجزائري، رؤية أطرتها الطروحات الفكرية الإصلاحية، فجاءت مواقفه عاكسة لواقعه. بعد أن أدرك من خلال تجربته في الحياة بأن الفرد لا يمكنه تحقيق النصر على عدوه، إلا إذا كان متشعبا بمصادر هويته ومدركا لحقيقة وجوده في هذه الحياة. وقد تميز شعره بنبرة القوة والتفاؤل بالنصر الذي سيتحقق في المستقبل. ونظرا لما يمتاز به الشاعر من حس مرهف ورقة المشاعر وصدق العاطفة، فإن استشرافه لمستقبل أمته. كان بعد أن تحسس مصائبها وهمومها ومشاكلها، وبذلك جاء نصه الشعري ترجمة لذلك بكل صدق .

المراجع :

- 1 - ديوان محمد العيد المؤسسة الوطنية للكتاب ط 3 / .
- 2 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 95
- 3 - عبدالله الركبي الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية ونقدية) ديوان المطبوعات الجامعية. 94
- 4 - صالح خرفي محمد العيد خليفة المؤسسة الوطنية للكتاب 1986 .
- 5 - صالح خرفي الشعر الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1984
- 6 - محمد بن سميحة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003
- 7 - محمد بن سميحة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 .

- 8 - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير دار العلم للملايين ط1/1981 بيروت
- 9 - أنور الجندي الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع مطبعة الرسالة القاهرة 1959
- 10 - كمال عجالي أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ديوان المطبوعات الجامعية 1991
- 11 - عبد الحميد جيدة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل ط1/1980 بيروت
- 12 - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر
- 13 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر دار الجيل ط1/2005 بيروت
- 14 - أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1985
- 15 - مجلة الموقف الأدبي ع118/1981 .

الهوامش:

- ¹ - من مقدمة ديوان محمد العيد وأنظر صالح خرفي محمد العيد خليفة ص 131 .
- ² - سورة الأنفال الآية 60
- ³ - مازن النقيب شعراء الأرض المحتلة وراشد حسين مجلة الموقف الأدبي ع118/1981 ص 92 .
- ⁴ - عبد الحميد جيدة الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر مؤسسة نوفل ط1/1980 بيروت ص 38
- ⁵ - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ديوان المطبوعات الجامعية 95 ص 62
- ⁶ - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري ص 311 .
- ⁷ - كمال عجالي أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته وشعره ديوان المطبوعات الجامعية 1991 ص 148/149
- ⁸ - عبدالله الركبي الشعر في زمن الحرية (دراسات أدبية ونقدية) ديوان المطبوعات الجامعية 94 . ص 155
- ⁹ - محمد بن سميحة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص 38/39 .
- ¹⁰ - الديوان ص 339
- ¹¹ - الديوان ص 262
- ¹² - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ص 69
- ¹³ - الديوان ص 135/136

- 14 - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003 ص 16.
- 15 - الديوان ص 90
- 16 - الديوان ص 113
- 17 - الديوان ص 139
- 18 - محمد بن سمينة العيديات المجهولة المؤسسة الوطنية للفنون الجميلة 2003 ص 78/77
- 19 - الديوان ص 47
- 20 - الديوان ص 61
- 21 - الديوان ص 305/304
- 22 - صالح خرفي الشعر الجزائري الحديث ص 219/218
- 23 - الديوان ص 327/326
- 24 - محمد بن سمينة محمد العيد آل خليفة دراسة تحليلية لحياته ديوان المطبوعات الجامعية 92 ص 98 .
- 25 - الديوان ص 327/326
- 26 - عمر بن قينة في الأدب الجزائري الحديث ص 155.
- 27 - الديوان ص 339
- 28 - محمد الطمار تاريخ الأدب الجزائري الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ص 289
- 29 - صالح خرفي محمد العيد خليفة ص 120 .
- 30 - الديوان ص 160
- 31 - الديوان ص 78
- 32 - الديوان ص 131
- 33 - الديوان ص 127
- 34 - نور سلمان الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير ص 247 .
- 35 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر دار الجيل ط1/2005 بيروت ص 47
- 36 - محمد صالح الجابري الأدب الجزائري المعاصر ص 55
- 37 - الديوان ص 159
- 38 - أنور الجندي الأدب العربي الحديث في معركة المقاومة والتجمع مطبعة الرسالة القاهرة 1959 ص 90
- 39 - الديوان ص 307

⁴⁰ - أبو القاسم سعد الله دراسات في الأدب الجزائري الحديث المؤسسة الوطنية للكتاب 1985 ص 42

⁴¹ - الديوان ص 371

⁴² - الديوان ص 338